العفــو والصفــح

من الخصال الكريمة والأخلاق الحميدة التي ينبغي للمسلم أن يتحلى بها : خلق العفو عمن أساء إليك أو قصَّر في حقك ، والعَفْوُ : هُوَ التَّجاوزُ عَنِ الذَّنْب وتركُ العِقَاب عَلَيْهِ ، وأصلُه المَحْوُ والطَّمْسُ، يُقَالُ: عَفَا يَعْفُو عَفْوًا ، فَهُوَ عَافٍ وعَفُوّ . (النهاية في غريب الحديث والأثر).

و (العَفُوُّ) من أسماء الله تعالى الحسنى وصفة من صفاته تعالى، قال سبحانه :{إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}[النساء: ١٤٩] ، قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: " إن تظهروا أيها الناس خيرًا، أو أخفيتموه، أو عفوتم عمن أساء إليكم ؛ فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ، ولهذا قال:{إِنّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} " (تفسير ابن كثير). وقال سبحانه:{ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}[الحج:٦٠].

الفرق بين العفو والصفح : والعفو والصفح متقاربان في المعنى إلّا أنّ الصّفح أبلغ من العفو ، فقد يعفو الإنسان ولا يصفح ، وصفحت عنه: أوليته صفحة جميلة (نضرة النعيم)، فالعفو ترك عقوبة المذنب ، والصفح: ترك لومه بعد ترك عقوبته ، ويدل عليه قوله تعالى:{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} [البقرة:١٠٩] ترقيًا في الأمر بمكارم الأخلاق من الحسن إلى الأحسن.

وخلق العفو من أخلاق الأنبياء والمرسلين ، فالأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لقوا من أقوامهم ما لاقوه ومع هذا لم ينتقموا لأنفسهم ، بل صبروا على الأذى في سبيل نشر دعوتهم ، وبذلوا وسعهم في بيان الحق لمن أرسلوا إليهم ، وقابلوا إساءات أقوامهم بالصبر ودعاء الله تعالى لهم ، فعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قَالَ: كأني أنظر إِلَى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأنبياءِ (صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُه عَلَيْهِمْ) ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، ويقول: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (متفقٌ عَلَيْهِ).

ولعظم قدر هذا الخُلُقِ الجليل جاء الأمر من الله تعالي للنَّبي (صلى الله عليه وسلم) بأن يتحلى به، فهو يعمل على دوام العشرة وحسن الألفة ، وذلك بأن يعفو ويصفح عن المؤمنين، وأن يلين لهم في القول والفعل ، وأن يشاورهم فيما حزبه من أمر ، لا لنقص في رأيه ، بل ليعلمهم وليقتدوا به (صلى الله عليه وسلم) ، قال تعالى:{فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ

الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[عمران:١٥٩] ، وقَال تَعَالَى :{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[الأعراف:١٩٩] .

وكذلك فإن العفو خلق من أخلاق المؤمنين الصالحين ، يجازيهم ربهم على عفوهم ، قال تعالى:{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[الشورى:٤٠].

وحظّ العبد من العفو هو أن يعفو عن من ظلمه ، ويحسن إليه ، متخلقًا بأخلاق القرآن الكريم ، مقتديًا بهدي سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) حتى يشمله الله تعالى بعفوه وكرمه ، فلا شك أن لكل واحد منا زلات وسقطات ، وعليه مظالم وحقوق للناس ، ويتمنى أن يتجاوز الناس عنه في مظالمهم ويسامحوه ؛ حتى لا يطالبوه بها يوم القيامة ، وهو أحوج ما يكون إلى حسناته.

وقد جاء الأمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بأن يصبروا ويعفوا عمن أساء إليهم ، وبيَّن لهم أن هذا الخلق من شيم المتقين المحسنين الذين حققوا الإحسان، وقد نالوا بذلك حب الله (عزّ وجلّ)، وأنه من أسباب سكنى الجنان بفضل الله (عزّ وجلّ)، قال تعالى:{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، وبيّن (جلّ وعلا) أن العفو والصفح عن خَلْقِ الله تعالى، هو سبب في عفو الله (عزّ وجلّ)، فالجزاء من جنس العمل، قال تَعَالَى:{وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ}[النور ٢٢].

نماذج من العفو:

١. نبي الله يوسف (عليه السلام) ، فكانت مقولته لإخوانه بعد أن أمكنه الله منهم مثلاً رائعًا في السماحة والعفو والصفح، فهو عفوٌ لا لوم فيه ولا تعيير، وهو صفح في حال المقدرة على العقاب ، وهو تنازل عن أي حق دون أي حقد أو كراهية ، وأضيف إليه الدعاء بالمغفرة على الذنب والستر، والرحمة في عالم الآخرة بين يدي أرحم الراحمين. قال تعالى:{قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ*قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[يوسف:٩١.٩٢].

٢. ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) المثل الكامل في العفو والصفح عمنّ خالطه وعامله (صلى الله عليه وسلم) من رجل أو خادم أو امرأة أو عامل أو غيره ، فعن السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت : (مَا ضَرَبَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ ، وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِمًا، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلاَّ أن يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ تَعَالَى، فَيَنْتَقِمُ للهِ تَعَالَى) (رواه مسلم)، وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) قُلْتُ : أَخْبِرْنِى عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فِى التَّوْرَاةِ. قَالَ : (أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِى التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِى الْقُرْآنِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}، وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِى وَرَسُولِى سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ سَخَّابٍ فِى الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا) (رواه البخاري).

وهذا أعرابي يأخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بردائه بغلظة وفظاظة، وقد ترجم العفو والصفح بإحسان وعطاء ، عن أنس (رضي الله عنه) قَالَ: (كُنْتُ أمشي مَعَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فأدْرَكَهُ أعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَديدةً، فَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم) وَقَدْ أثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ
الَّذِي عِنْدَكَ. فَالتَفَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ) (متفقٌ عَلَيْهِ).

بل إن عفو النبي (صلى الله عليه وسلم) اتسع ليصل إلى غير المسلمين من المشركين والكافرين من أهل مكة الذين تفننوا في إيصال العنت والأذى للنبي (صلى الله عليه وسلم) ومن تبعه من السابقين الأولين ، فلما عرض له ملك الجبال ، وأخبر أنه مأمور من الله بطاعته، فلو أراد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن ينتقم منهم ويدعو عليهم لانتقم الله منهم عن بكرة أبيهم ، لكن أشفق عليهم ، ودعى لهم، فعن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت للنبي (صلى الله عليه وسلم) : هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَال: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيْلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأنا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ...فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِع قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأنا مَلَكُ الجِبال، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ،

إِنْ شِئْتَ أَطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ النبي (صلى الله عليه وسلم): (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) (متفقٌ عَلَيْهِ).

وفي غزوة أحد تأمل حال النبي (صلى الله عليه وسلم) وما لقيه من قومه وما أصابه منهم حتى أدموه فجعل يُزيل الدم عنه ، ويقول: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: يَعْنِي هَذَا الدُّعَاءُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ لَمَّا شُجَّ وَجْهُهُ. (رواه ابن حبّان). فقد جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم القبيحة إليه. أحدها : عفوه عنهم ، والثاني: استغفاره لهم ، والثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون ، والرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه ، فقال : (اغفر لقومي) كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي، فهبه لي) (بدائع الفوائد لابن القيم).

ولما عاد النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى مكة بعد ثماني سنوات فاتحًا بعد أن أُخرج منها ، فقد عاد إليها على رأس جيش بلغ أكثر من عشرة آلاف من المسلمين ، ودخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة دخول الشاكرين لله (عزَّ وجلَّ) دخلها وهو راكب على ناقته تواضعًا لله وشكرًا ، وكادت جبهته (صلى الله عليه وسلم) أن تمس عنق ناقته ، وسيطر الرعب على أهل مكة خوفًا من أن ينتقم منهم (صلى الله عليه وسلم) نتيجة أفعالهم معه ومع أصحابه (رضي الله عنهم أجمعين) فقال لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) : (يا معشر قريش مَا تَرَوْنَ أَنِّى صَانِعٌ بِكُمْ؟) قَالُوا : خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ : (اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ) (سنن البيهقي) ، فلم يقتل (صلى الله عليه وسلم) أحدًا ، ولم يصادر أرضًا، بل كان (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين كما وصفه الله تعالى.

ولقد أمر الحق سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالصفح عن أهل الكتاب الحاسدين الحاقدين على الإسلام وأهله ـ فضلا عن الصفح عن المسلمين ـ رغم ما بينهم وبين المؤمنين من العداوة والبغضاء ، موصيًا إياهم بالصبر على أمر الله حتى يأتي الفرج من عنده ، قال تعالى:{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[البقرة:١٠٩].

٣. عمر (رضي الله عنه) في امتثال تام لأمر الله تعالى وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) في العفو ، يصفح عن جهل الجاهل وفظاظة الأحمق، فعن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ

حِصْنِ بْنِ حُذَيفَةَ بنِ بَدْرٍ، فَنَزلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسِ ابْنِ حِصْنٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذين يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولاً كانُوا أَوْ شُبَّاناً، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي! هَلْ لَكَ وَجْهٌ (وجاهة ومنزلة) عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَتَسْتَأْذِنَ لِي عَلَيْهِ؟ قَالَ: سَأَسْتَأذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأذَنَ لِعُيَيْنَةَ، فَلَمَا دَخَلَ قَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ! وَالله مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ (الكثير)، وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ بِأنْ يَقَعَ بِهِ ، فَقَالَ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَ! إنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ (صلى الله عليه وسلم) إنّ الله تعالى قال لنبيّه:{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩].